على بوابة المستقبل.. وقفة صريحة ومراجعة ضرورية

المهمة غير المستحيلة:

إن مهمتنا في انبعاث حضارتنا الإسلامية في دورة جديدة من التاريخ غير مستحيلة...

لا أقول-وقد كدت أقول- إنها مهمة سهلة.. ولكن- مع ذلك – فهذه المهمة- رغم صعوبتها- ليست مستحيلة ولا شبه مستحيلة..!!

إننا لن نبدأ من فراغ؛ فإن أصول حضارتنا ثابتة وموجودة وواضحة... وإن بين أيدينا كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نستطيع أن ندور في فلكه دون أن نزيغ أو نضل..

ولدينا تجارب حية واقعية أثبتت صلاحية ديننا، وقدرته على التحدي والإبداع، والصمود، والتفوق على كل عوامل الاندثار الحضاري!!

وقد واجهنا-في مراحل تاريخنا ويوم ظهرنا على الأرض- حضارات كبرى كان الفارق بينها وبيننا هو الفارق نفسه الذي يفصلنا الآن عن حضارة العصر، بل ربما كان الفارق أكثر، وكان التحدي أكبر.

وبهذا الدين، وما يضمه بين أصوله وفروعه من قابلية متجددة للعطاء الحضاري، والانبعاث المستمر، قبلنا كل التحديات واستجبنا لها... ولم ننهزم أمامها، أو نتعامل معها من موقع الدونية، فنقيس ما عندنا إلى ما عندها، ونزن ما لدينا بما لديها.. بل العكس هو الصحيح... لقد وضعناها بكل أفكارها وعطاءاتها على مقياسنا وميزاننا، وقبلنا ما ينسجم معنا ورفضنا ما ترفضه موازيننا...

إننا لم نقف كما يريد بعض مهزومي هذا العصر موقف المحاكي والمقلد.. فهذا الموقف-غير الحضاري- لو وقفناه لما كانت لنا حضارة ذات ملامح وأصول إسلامية، ولكنا قد ذبنا كغيرنا...

بل إننا من نقطة الإحساس الإسلامي الأصيل والوعي الحضاري الرشيد هيمنَّا على هذه الحضارات.. وكنا الشهداء عليها والمميزين بين ثمينها وغثِّها...

وقد اختلفنا في الرأي حول كثير من الموضوعات، وتعددت في أيدينا أساليب المواجهة.. واختلفنا حول أولوية هذه الأساليب.. فمن عقلاني إلى نصي، ومن نصي ظاهري إلى نصي مؤول.. وفي العقيدة والفقه واللغة والتفسير والاقتصاد.. اختلفنا.. لكن المهم-كما يقول كاتب معاصر-أن أسلافنا على الرغم من هذه الاختلافات يجعلونك تحس أنهم كانوا كالذين يتبارون على ملعب واحد، يلتزمون روحًا واحدة، وقواعد متفقًا عليها، ومن هنا أمكن أن تكون لهم ثقافة موحدة الروح، وإن تباينت جوانبها، وظواهرها..[1].

لقد واجهوا كل المواقف.. بموقف مضاد، يمتاز بأنه (فعل) و(دائم) و(شامل) وليس مجرد (رد فعل) (وقتي) (جزئي)..

فعندما استحر القتل في القراء، وخافوا ضياع القرآن جمعوه في المصحف.. هكذا كان موقف أبي بكر رضي الله عنه.

وعندما أحسوا بأن للشعر الجاهلي صلة بالإعجاز القرآني البياني، فالشعر ديوان العرب، أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالاهتمام بالشعر، وقال للناس: عليكم بديوانكم لايضل، قالوا: ما هو؟ قال: شعر الجاهلية فيه معنى كتابكم!!

وعندما خشي عثمان رضي الله عنه اختلاف الناس جمع القرآن في مصحف واحد، وأحرق ما دونها.. فكان عمله من أفضل الخدمات لديننا ولحضارتنا.. وقد منع عنا- جزاه الله وإخوانه خيرًا- ما وقعت فيه النصرانية من تبديل وتحريف!!

ولما شاع اللحن أمر علي رضي الله عنه أبا الأسود الدؤلي بوضع قواعد النحو..

ولما أحسوا بعجزهم منفردين عن تفسير القرآن ابتدعوا علم التفسير.

---

(١) د/ زكي نجيب محمود، مجتمع جديد أو الكارثة، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ٣٣١.

ولما ظهر الوضع في الحديث ابتدعوا علم الجرح والتعديل، وجمعوا الأحاديث، وأخضعوها لمنهج علمي من أدق مناهج النقد التاريخي.

ولما خرجوا من الجزيرة وواجهوا نحلا باطلة كثيرة وبقايا وثنيات تأبى أن تزول ابتدعوا علم الكلام الذي أدى دوره كاملا في عصورهم..

وفي مواجهة مسائل الحياة المتجددة أنشئوا علم الفقه.. والمذاهب.

وعندما أحسوا بالحاجة أثناء أسفارهم وفتوحاتهم إلى معرفة القبلة والوقت دونوا علم الهيئة..

وعندما أحسوا بالحاجة الاجتماعية إلى العد والحساب وضعوا علم الحساب.. واخترعوا الصفر!!

ولن نستطرد في ذكر هذه المواقف الحضارية الإيجابية الرائدة، إنما حسبنا أن نشير إلى نوعية أسلوب المجابهة الذي التزمه أسلافنا..

إنه أسلوب الحل الأصيل الشامل المتفوق، وليس الحل الانهزامي الذي يسعى إلى الترقيع والتقليد!!

* * *

إن قدرة حضارتنا على الانبعاث والاستئناف فريدة في التاريخ.. فقط أن تتوافر الإرادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. إنها - من هذا الجانب - حضارة معجزة...

ففي أقل من نصف قرن من إيمان رجل واحد بها..كانت جيوشها تدك أعتى عروش الظلم، وكانت تستقبل- في فارس والروم- وهما أرقى حضارتين- استقبال الهمجية للحضارة، والغابية للإنسانية.. ولم يعرف في التاريخ أن حضارة تنبعث في مثل هذا الظهور المفاجئ، وهذه الطفرة المعجزة..

حضارة تنبعث هكذا واقفة على أقدامها لها أصولها وجذورها الضاربة في كل فكر وفي كل ركن.. حضارة تبرز كالبناء الكامل القائم على أسس راسخة..

﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم].

ويحار المستشرقون في تفسير هذه الظاهرة الفريدة في التاريخ الحضاري!! ومن حقهم أن يحاروا؛ لأنهم لا يؤمنون- بل لا يعرفون- إلا الدفعة العرجاء للمادة..أما دفعة الروح الهائلة فهم لا يريدون-وربما لا يستطيعون- أن يؤمنوا بها..

يقول أحد أبناء الحضارة الأوربية الذين نجحوا- بعد جهاد مرير- في الانسلاخ منها.. مصورًا هذه الحقيقة التي تتميز بها الحضارة الإسلامية من بين سائر الحضارات..

يقول ليوبولدفايس (محمد أسد) بعد أن يستعرض القرون الطويلة التي تكونت فيها مقومات الحضارة الأوربية مما ورثته عن حضارة اليونان والرومان وما خلفته لها المسيحية.

وبعد أن يستعرض-كذلك- الأحقاب الطوال التي تكونت فيها حضارة الرومان، والزمن الذي استغرقته حضارة الهندوس التي امتدت بها سدم الماضي إلى السومريين، والأجيال التي امتصت عصارتها حضارة العبرانيين التي اتصلت بحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين والحيثيين!!

وسفائن التاريخ التي امتطتها حضارة الصين، وحضارات بابل وإيران وآشور..

يقول (محمد أسد) بعد هذه الرحلة في أصول الحضارات:

(ولكن هناك استثناء واحدًا لكل ما أسلفنا من قول، استثناء كاد لغرابته أن تذهل له العقول وتنعقد الألسنة، فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت للوجود من عالم الغيب دفعة واحدة، واستوت للناظرين قائمة على أصولها في فترة محدودة من تاريخ البشر، تلك ولاشك حضارة فذة من نوع فريد وإنها لحضارة الإسلام!!

فلئن قامت كل الحضارات الأخرى ونشأت رويدا رويدا من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر، واستغرقت في تبلورها إلى شكلها الخاص وكيانها المحدد آمادًا طويلة من الزمن، **فلقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار.**

وقد جمعت هذه الحضارة، من فجر نشأتها، كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة.. فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل،وله منهجه المحدد للعلاقات بين الأفراد، بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع.

ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة، كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد ﷺ[1].

* * *

وهذا الذي ذكره (محمد أسد)، والذي ذكرناه أيضًا، إنما يتعلق بمقومات هذه الحضارة وأصولها العقدية والثقافية والاجتماعية ونظرتها للكون وصياغتها للحياة..

إنها أصول ثابتة وواضحة يستطيع أن يقوم عليها البناء الحضاري التطبيقي-في أية فترة من التاريخ- متى توافرت الإرادة البشرية، وانسجمت عناصر الإبداع، من إنسان وعقيدة وتراب وزمان..

وفي هذا المستوى فإن الحضارة الإسلامية تنمو كما تنمو كل الكائنات الحية، ويبرز الدور البشري الذي يجسد فكر الحضارة وقيمتها، ويعطيها طابعها العام الذي ينساب في كل جزئياتها..

فلئن كانت الحضارة اليونانية قد امتازت بالطابع المنطقي الجدلي، وجاء الرومان فامتازوا بالطابع المادي على الرغم من بعض الاختلاف في الملامح الخاصة لأجناسها

(١) الإسلام والتحدي الحضاري، دار الكاتب العربي، بيروت ص١٩.

من سكسون تجريبيين، إلى فرنسيين رياضيين، إلى ألمان يتميزون بالطابع الميتافيزيقي، إلى أمريكان يتميزون بالطابع النفعي (البرجماتي)!!

لئن كان لكل حضارة طابعها الذي ينتظمها على هذا النحو، فإن للحضارة الإسلامية طابعها الذي يتجلى عند التطبيق، والذي يميزها عن بقية الحضارات.. ويعطيها أهميتها في التاريخ..

- إنه طابع الإنسانية، والأخلاقية في مستوى الواقع البشري.
- وإنه طابع التوحيد في مستوى العلاقة بالله.
- وإنه طابع الحق والعدل والعلم في كل أمر من الأمور وكل علاقة من العلاقات..
- وهذه هي الحضارة (الحتمية) لعالمنا المعاصر؟!

وإن استئناف مسيرتها لأمانة في أعناق المسلمين... وسوف يسألون!!

خطأ في المنهج:

(تشخيص الأعراض.. لا الأمراض).

من بين الكتابات الكثيرة التي صدرت في القرن الرابع عشر الهجري عن (أسباب تخلف المسلمين) لم نجد-باستثناء قلة رائدة على رأسها أبو الأعلى المودودي وسيد قطب ومالك بن نبي ومحمد أسد - من حاول تشخيص الأمراض.. وإنما ساد كتابات أكثرهم منهج (تشخيص الأعراض) دون النظر إلى الأمراض اللهم إلا عرضًا.. وإن كثيرًا منهم ليخلطون بين الأمراض والأعراض بطريقة توحي أن المنهجية -في التحليل- عملية مفقودة، وأننا نتناول أكثر القضايا خطورة بالمنهج نفسه الذي يملأ به الصحافيون أبوابهم الثابتة في الجرائد والمجلات..!!

وحتى كثير من المؤرخين-سامحهم الله- غلب عليهم منهج السرد، والحديث عن الظواهر العارضة دون دراسة ما وراءها من أسباب كامنة..

وفي أكثر الدراسات والأبحاث التي حاولت أن تعالج أسباب تخلف المسلمين رأينا التركيز على:

- الغزو الفكري.
- الاستشراق.
- الجمعيات السرية والماسونية والروتاري والخلايا الشيوعية وغيرها.
- التبشير.
- سقوط الخلافة العثمانية.
- إحلال القوانين الوضعية محل الشريعة.
- سقوط مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي.
- تحول المسجد إلى معبد وانحسار رسالته.
- سقوط الحجاب وظهور السفور واختلاط الجنسين.
- سيطرة الأيدي الخفية على التعليم في جميع مراحله.
- ظهور الدعوات الإقليمية واللادينية.
- تبني الإعلام محاربة الله ورسوله والمؤمنين.
- سيطرة البنوك الربوية على الحياة الاقتصادية.
- سقوط العالم الإسلامي عسكريًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا.
- ظهور دولة إسرائيل وضياع القدس الشريف.
- تكريس الهزيمة والفرقة والضياع رسميًّا..[1].

* * *

وعند النظر الفاحص نجد أن هذه الشوائب وغيرها إنما هي أعراض لا أمراض

(١) **انظر**: محمد كاظم حبيب، مجلة البلاغ، العدد الرابع عشر، مقال: أقيموا دولة الإسلام في بيوتكم (بتصرف).

والمنهج السليم والعلمي أن نبحث عن أسباب الأمراض لا عن أعراضها... فإن ضعف الجسم نتيجة وليس سببا... وقد يكون وراء ضعفه أسباب مختلفة... فلربما كان فقر في الغذاء، أو سوء تنظيم في برنامج العمل والراحة، أو تلوث في الهواء، أو إجهاد نفسي وفكري، أو غير ذلك... وعندئذ يكون العلاج أن نعالج المرض الأصلي بما يناسبه... وبالتالي تزول من نفسها وبتأثير عودة الجسم إلى حالته الطبيعية- هذه الأعراض الطارئة والظاهرة...

وإنما سقطت خلافة العثمانيين، وإنما نجح الغزو الفكري والاستشراق، وإنما فرض الخديوي إسماعيل القوانين الوضعية، وإنما سيطر التبشير واليهود على الإعلام والتربية، وإنما سفرت المرأة، وسقطت مكانتها (كما سقطت مكانة الرجل!!)، وسيطرت البنوك الربوية، وظهرت إسرائيل في فلسطين،وروسيا في أفغانستان واليمن والصومال..

إنما وقع كل ذلك وغيره؛ لأن هناك حالة (قابلية للاستعمار) (حسب تعبير مالك بن نبي) قد أصيب بها الإنسان المسلم.

والعلاج الصحيح والوحيد أن نزيل هذه القابلية للاستعمار، وأن يُبْنَى المسلم- من جديد- وفق برنامج يكفل له التفوق الحضاري-علميًّا وعقديًّا وخلقيًّا- وتزْرَع فيه العزة التي تستعلي على هذه القابلية للذل وتستطيع ببنائها الذاتي طرد الجراثيم المضادة.

إنه لخطأ كل الخطأ-في منهج الفكر الإسلامي الحديث- أن نكتب عشرات الكتب عن الأعراض- مستسهلين هذا الطريق- ولا نكلف أنفسنا عناء الغوص في أعماق القوانين الحضارية التي هي من سنن الله الكونية والاجتماعية لنعرف حقيقة الداء الذي أصيب به الإنسان المسلم حتى فقد قدرته على البقاء في حلبة الصراع الحضاري، وقدرته على التوازن في مواجهة العواصف، وقدرته على تقديم أي شكل من أشكال الحضارة.

ولقد رضي الإنسان المسلم بهذه الحالة الهابطة التي تجعله طفيليا يأخذ من حضارة العصر غثاءها وخواءها ويترك طيبها وجميلها.. تمامًا كما تفعل الديدان والكائنات المنحطة!!

والكارثة الكبرى.. أنه لا يحس بالكارثة!!

* * *

سياسة عقيدة ودعوة

في التاريخ الإسلامي غبار كثير تراكم، متدرجًا من البسيط إلى المركب، حتى أصبح خلال القرن الرابع عشر المنصرم والعقود الأولى من القرن الخامس عشر قوالب حجرية جامدة يصعب زحزحتها عن مواقعها.

إنها قوالب نمت في مسيرتنا التاريخية كما تنمو الأتربة التي سرعان ما تصبح أكوامًا تحجب الرؤية، وتفرض نفسها، كجزء من الحقيقة الأرضية، بينما هي في أصلها أمشاج متناثرة وفدت من كل الأصقاع، وحملتها مختلف الأعاصير، كما يحمل كل عهن منفوش لا وزن له!!

وقد جنحت هذه الأتربة الكثيفة على (العقل المسلم) بحيث أصبح هذا العقل المكافح في حاجة إلى قوة هائلة كي يتمكن من زحزحتها.. وإعادتها إلى أمشاج متناثرة.. تتجه إلى صوب آخر.

ولنبدأ (بعقيدة المسلم)..

فأين هي العقيدة التي نزلت على محمد بن عبد الله ﷺ وتلقاها جيل الصحابة صافية نقية بينما هي تهبط من فوق إلى تحت، ثم تظهر آثارها الصافية النقية بينما هي صاعدة من تحت إلى فوق..

إنها-كما هبطت صافية نقية- تتلخص في آيات محدودات بريئة من شوائب الجدل المنطقي أو (الديالكتيكي):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

أين هذه (العقيدة) (البسيطة) التي تلقتها (الفطرة) السليمة، فوجدت فيها حقيقتها الكاملة، وجوهرها النقي، فتفاعلت معها تفاعل الدم مع القلب.. وانطلقت بها فطرة الرعيل الأول تنفض عن البشرية غبارها المتراكم عبر القرون.. وترفع لواء (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من طنجة إلى جاكرتا.. بل في قلب أوربا فيما قبل جبال البرانس وفيما وراء البرانس حتى (بواتييه) على أبواب باريس.

وفي كل ذلك مرورا بميراث أكبر إمبراطوريتين في عالم القرن السابع الميلادي دوت صيحة (الله أكبر) حتى وصلت إلى عنان السماء.. فعاد الهتاف العلوي الهابط من السماء إلى الأرض.. يصعد مرة أخرى من الأرض إلى السماء في أكبر عملية التحام بين الإرادة الإلهية والإبداع البشري في تاريخ هذا الإنسان على هذا الكوكب الصغير!! أين هي هذه العقيدة الصافية النقية، وأين هو إنسانها ذو الفطرة السليمة..؟ وأين هما من هذا الركام من التصورات والأباطيل التي نمت في عقل المسلم، وجعلته كينونة غريبة بين الإيمان والشرك في سياق واحد: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦].

أجل: أين فقه العقيدة لا (علم الكلام)؟!!

* * *

عقيدة ودعوة

إن عقيدة المسلمين التي فتحوا بها العقول والقلوب والأرض هي تلك العقيدة الإسلامية البسيطة الحية الإيجابية الفاعلة التي خرج بها المسلمون في العهد النبوي، في غزوات وسرايا وبعوث بلغت خلال عشرة أعوام أكثر من ثماني وستين غزوة وسرية وبعثًا..

وهي -كذلك- هذه العقيدة التي واجه بها المسلمون أباطرة الأرض وقياصرتها في العهد الراشدي وكأنهم يواجهون بقوة السماء ضعف الأرض، وبشموخ الحق انحدار الباطل.. لقد واجه بها خالد وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص أعنف معارك التاريخ حتى عصرهم..

ووقف - بهذه العقيدة - ضابط صغير من ضباط المسلمين يدعى ربعي بن عامر، يقول لرستم قائد الفرس:

(لقد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه).

لم تكن (العقيدة)- في فقههم- إلا الحياة.. فلا حياة بلا عقيدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] .

ولم تكن الحروب في منهجهم إلا حروب عقيدة ودعوة لا معارك سياسة ودولة.. إن كل جندي مسلم كان يحس بأنه (عمر بن الخطاب) و (خالد بن الوليد) وأن النصر إنما هو انتصار لقضيته هو في الأرض.. كان كل منهم جيشًا عقديًّا يسعى لتحرير البشرية من عبودية العباد إلى عبودية الله.. وكان آخر ما يفكرون فيه المغنم والمتاع.

انظر إلى فتوحاتهم على قلة ما ملكوا فيها من عدد وعدة كيف قهرت جيوشا كثيفة العدد قوية العدة، ففي فتح الأندلس التقى طارق بن زياد ومعه اثنا عشر ألف جندي ومعظمهم حديثو عهد بالإسلام من البربر... التقي بجيش إمبراطورية القوط العصري المنظم الذي يزيد على مائة ألف جندي.. فكان النصر للعرب وللبربر حديثي العهد بالإسلام وقليلي العدد والعدة، وفتحت على أيديهم أسبانيا، وانتشر فيها الإسلام حتى أصبح يهدد- من خلالها- كل أوروبا..

إنها جيوش (عقيدة) و (دعوة).. لا جيوش (سياسة) و (دولة)!! فلما جاء عبد الرحمن الثالث الشهير بعبد الرحمن الناصر، حكم أوربا-كما يقول التاريخ- من خلال

عاصمته قرطبة، وكانت له علاقات طيبة بإمبراطور الدولة البيزنطية (قسطنطين السابع) (٩٠٥-٩٥٩م).

وبإمبراطور الدولة الرومانية (أوتو الأكبر) (٩٦٣-٩٧٣م).

وبملك إيطاليا (هوج دي بروفانس)..

كما أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) كانت له حروب ظافرة ضد ملك (نابرة) سانشو الأول، وملك ليون أوردو الثاني..

ومن الغريب أن (الناصر) كان يلعب ببعض حكام أوربا، على النحو الذي يمارسه الغرب والشرق-الآن- بالمسلمين!!

فلما مات (راميرو الثاني) ملك ليون، ودب النزاع على السلطة بين ولديه (أوردوينو، وسانشو).. كان الناصر هو الحكم بينهما، وقد وقف إلى جانب سانشو عندما وافق الأخير على أن يعطيه عشرة حصون مهمة على حدود مملكته!!

- لكن ماذا أفاد الإسلام من كل هذا المجد؟

- إنه مجد محدود.. كالبريق الزائف.. لأنه لم تصحبه (دعوة) وما إن مات الناصر، وخلفه ابنه (الحكم الثاني) (٣٥٠-٣٦٦هـ) الذي عاش أكثر ما عاش على مجد أبيه المؤقت- حتى استطاع مغامر غريب الأطوار، أن يصل إلى الحكم، مستخدما في ذلك كل الوسائل (الميكيافيلية) الحديثة.

أجل: لقد كان المنصور بن أبي عامر سياسيًّا وداهية من طراز نادر.. وقد نجح في أن يجعل دولة بني أمية في الأندلس مجرد ظل باهت.. ولم تقم لها بعد ذلك قائمة!!

فأين هو مجد عبد الرحمن الناصر.. في داخل الأندلس أو خارجها؟ وعلى خطا (الناصر) سار المغامر (المنصور العامري) فغزا النصارى سبعًا وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها قط، حتى سمي (الجلاب) لكثرة ما جلب لشعبه من الغنائم والسبايا..

ومع ذلك كله.. فإن هذه الغزوات لم ترجع على الإسلام-كدعوة- بشيء.. فلم

يزد الأمر عن سبع سنوات – فقط – بعد وفاة المنصور العامري حتى سقطت الأندلس في حضيض مروع من الفتن، انتهى بسقوط الدولة الأموية، وبداية سقوط راية الإسلام في الأندلس كلها.

فما قيمة هذه المعارك الظافرة التي بلغت سبعًا وخمسين غزوة إذن؟

– لقد كانت معارك (سياسة ودولة)، لا معارك عقيدة ودعوة!!

– لقد كانت معارك وراءها (قواد عظماء) وليس وراءها شعوب عظيمة.. فلما انتهى القواد العظماء انتهى مجدهم معهم!!

لقد كانوا عظماء حقًّا.. لكنهم احتكروا العظمة، وكانت طبيعتهم الطاغية حائلا دون أن تنبت حولهم زهور عظيمة.

على أنهم وقد احتكروا العظمة وأهملوا تربية شعوبهم على العقيدة والدعوة – قد استثمروا مجدهم في مظاهر زائفة، ظنوها طريقهم إلى الخلود..

فعبد الرحمن الناصر.. بنى مدينة الزهراء، وأنهك في بنائها جيشًا من العمال، واستنفد في بنائها ثلث إيراد الدولة لمدة سبع عشرة سنة، بل إن بناءها قد استمر بعد ذلك في عهد ابنه الحكم مدة طويلة!!

وأما (المنصور العامري) فقد بنى مدينة الزاهرة، لكي تنافس مدينة الزهراء!! إنه منهج الفراعنة القديم.. المنهج القائم على بناء الآثار، على حساب بناء الإنسان.. إنه عكس لترتيب المعادلة الحضارية، فالإنسان، هو المبدع الأول للحضارة.. وفكر الإنسان وعقيدته قادران على إنجاز التطور الحقيقي.. أما هذه الماديات الاستهلاكية، فهي وسيلة تدمير للإنسان، إذا أصبحت هي الغاية في حد ذاتها.. وهي – من زاوية أخرى – وسيلة إذلاله، ووسيلة استنزافه.. واسترخائه!!

إنها (عبودية) تتناقض مع عقيدة (التوحيد).. عقيدة (لا إله إلا الله).

* * *

ومن المؤسف أن قرننا المنصرم لم يقدم لنا إلا بعض المحاولات التي سعت إلى صياغة (فقه العقيدة).. صياغة علمية عصرية، هي تعبير عن جهود فردية مخلصة، لا عن عمل جماعي ينضح بروح العصر الموسوعية..

وما يقال في العقيدة يقال- كذلك- في فكرنا التشريعي والفقهي، ويقال كذلك في تاريخنا الذي يحتاج إلى إعادة كتابة، كما يحتاج إلى نظرية إسلامية لتفسيره، وتفسير وقائع التاريخ البشري العام..

إن (فن الصياغة) العامة يجب أن يتبوأ مركزًا أساسيًّا في المرحلة المقبلة التي سيواجهها العقل المسلم، كما أن هذا العقل يجب أن يؤمن إيمانًا كبيرًا- بجدوى تقديم الأطر العامة والنظريات المتكاملة والمناهج الشاملة!!

يتحدث الأستاذ محمد المبارك في مجلة المسلم المعاصر عن النظام الإسلامي العقائدي الذي يجب أن يطرحه (العقل الإسلامي الحديث)...فيتساءل:

كيف نواجه نحن المسلمين النظم العقائدية الوافدة المتداعية إلى غزونا، بنظام عقائدي إسلامي؟

كيف نصوغ مبادئ الإسلام الأساسية بحيث تنظم جماعة المسلمين وتكون منهم أمة، وتقيم منهم على أساس هذا النظام دولة، لتجتمع لهم عقيدة وأمة ودولة على نسق واحد، ينتظم عقدها نظام واحد؟

على أن تكون هذه الصياغة مناسبة لأساليب التفكير المعاصرة، وتتمتع بقدرة على الحوار والمواجهة للنظم الأخرى، وعلى مخاطبة الناس جميعا في عصرنا هذا، والانفتاح على الإنسانية بأفقها الواسع!!

ولكي نبلغ هذه الغاية لابد من العودة إلى الوراء لرسم الخط البياني الذي أوصلنا إلى موقفنا الحالي..

لقد مر الإسلام منذ بدايته وقبل مرحلة الغزو الأخيرة بمرحلتين:

أولاهما: مرحلة الازدهار والقوة؛ التي استمرت أربعة قرون، ثم بقيت بحكم الاستمرار، وبقوة الإشعاع فاعلة عدة قرون أخرى.

وثانيتهما: مرحلة الضعف والجمود التي بدأت بالقرن العاشر الهجري، وهي مرحلة تتسم بالركود العلمي وغلبة النقل والتقليد، وفقدان الإبداع، ووقوف العلوم الرياضية والطبيعية، وركود الحركة الاقتصادية، والاهتمام بالجزئيات تفكيرًا وعملا، بدلا من الاهتمام بأهداف الإسلام ومقاصده وكلياته..

وكل ذلك وقع -كما يقول الأستاذ المبارك- بسبب ما طرأ من تغيير على المفاهيم الأساسية الإسلامية، وانحراف عن الاتجاه الإسلامي الأصيل، وتغيير في سلم الأولويات كما رتبها الإسلام في كتابه وسنته، بحيث أصبح الاهتمام الكبير بالأمور الثانوية، والإغفال الشديد للأمور التي اعتبرها الإسلام في الدرجة الأولى من الأهمية!!

يضاف إلى هذا ما أدخل في المحيط الإسلامي من أفكار خارجية أقحمت على الإسلام مباشرة أو بطريق التأويل، وما ابتدع في مجال العقيدة والعبادات، مما أخل بعقيدة التوحيد التي هي محور الإسلام وجوهره وسبب قوته[1].

والطريق -بعد ذلك- إلى إقامة بناء عقدي فكري متكامل، نستطيع على أساسه تصحيح ما حدث في العصور السابقة من انحراف وتشويه وتبديل، ونستطيع -أيضًا- دحض التيارات الفكرية الوافدة- يقتضي منا أن نصوغ ما يتضمنه القرآن من حقائق عن الوجود، يعرضها علينا ويدعونا إلى الإيمان بها صياغة جامعة شاملة.. على أساس:

- معرفة الله من خلال الكون.
- معرفة الله من خلال الإنسان وتركيبه وعقله.
- معرفة الله من خلال حركة التاريخ البشري.

وأخيرًا.. معنى عبودية الله وحده، ورفض عبادة ما سواه من أصنام وأوثان ونظم

(١) محمد كاظم حبيب، العدد الرابع عشر من مجلة البلاغ، مقال: أقيموا دولة الإسلام في بيوتكم.

وأوطان وأفكار وشعارات فارغة المحتوى كالشعب والدولة.. فضلا عن تقديس بعضهم للعقل والتقدم والحتمية.. وما إليها من مقولات رائجة في سوق الشعارات!!

* * *

أزمة العقل المسلم

- أجل أين علم المسلم وعقله في عالم مقاتل بالعلم والعقل؟

- إن (رماح) عصرنا أصبحت صواريخ تحمل رءوسًا نووية.

- وإن (خيول) عصرنا أصبحت طائرات تسبق الصوت، وتحمل الواحدة منها ثمانية عشر رأسًا نوويًّا تكفي لتدمير دولة يزيد عددها عن مليون من البشر!!

- وإن (فارس) عصرنا الذي يستحق في الغنيمة ضعف أخيه الماشي على قدميه.. هذا الفارس المغوار هو من يستطيع تطوير أي سلاح ذري أو نووي أو تقديم نظرية اقتصادية متكاملة تقوم على ركائز عقيدته وقيمه وتقلب موازين العالم المادي.. عالم البنوك الربوية والبورصات!!

- أين علم المسلم وعقله، وهو الإنسان الوحيد في الأرض الذي تلقى وحيًا من السماء يأمره في أول كلمة يلقيها على مسامعه: (اقرأ)

عجبًا كأنه يفتح بهذه الكلمة عصر العلم والعقل..

وكأنه- وهو يدق باب القرن الأول الهجري- يدق أيضًا- بوابة القرن الخامس عشر للهجرة.. ولازال المسلمون يحتاجون إلى (اقرأ) نفسها.. إلى الإيقاع نفسه الذي خلفته أصداؤها في الجيل الأول في الشعور وفي اللاشعور.. فقد استدارت جاهليتهم كهيئتها الأولى وارتدوا على أدبارهم تخلفًا وأميّة كيوم هبط جبريل بأول (توجيهات) الإسلام الكبرى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

إنها (توجيهات) لا تقف عند علم معين، ولا تربط العلم ببيئة معينة، ولا زمان معين.. بل شرطها الوحيد.. أن تكون (باسم الله)!!

ومع ذلك شاء المسلمون في مراحل تخلفهم أن يقسموا (العلم) قسمين: علم دين وعلم دنيا.. وجعلوا ثواب (العلم الأول) أكثر من ثواب (العلم الثاني).. وكأن علوم الدنيا من طب وفلك وفيزياء ونبات ليست علومًا دالة على إبداع الخالق في الآفاق وفي الأنفس.. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت:٥٣]!! وبالتالي فهي -كما تدل الآية- علوم دين!! وأما ما أسموه (بعلوم الدين) فهي علوم إن لم تؤثر في الدنيا، فإنها تفقد دورها.. إن (الدنيا) هي بعض وظيفتها وجزء أساسي في مجال عملها وهي قنطرتها إلى الآخرة.

فمن أين للمسلم هذا التقسيم؟

وهل يمكن أن تصنع هذه النظرة القاصرة حضارة تليق بدين لا فصل فيه بين الدين والدنيا والعقيدة والعبادة؟!

وهل يمكن أن تكون (جدليات) علم الكلام العقيمة، وتكلفات الفرق المختلفة، من أشاعرة إلى معتزلة إلى مرجئة إلى خوارج -أفضل- للمسلم في دنياه وأخراه- من النظر الثاقب الفاحص الرشيد في عالمي النفس والكون؟!!

وهل يمكن أن يكون ذلك (الفقه الافتراضي) الذي يخترع أقضية ويمرن عقله على الفتوى فيها.. أكثرها مستحيل عقلا.. هل يمكن أن يكون ذلك (الفقه التقديري)-كما أسموه- أفضل من دراسة المجتمع واستخلاص قوانين الاجتماع على أسس علمية ورياضية، وبالتالي البحث الدائم لأمراض المسلمين الاجتماعية والاقتصادية عن حلول حقيقية نابعة من أصول دينهم وقواعده الكلية؟!!

وهذا (النحو التقديري).. (نحو) الحذف والعامل والمستتر وجوبًا وجوازًا، والتنازع والاشتغال.. وغيرها من التقديرات العقلية الضائعة... هذا النحو الذي

(عقد) لغتنا العربية الجميلة، وجعلها من (اللغات الصعبة) حتى على أبنائها، وجعل أحدهم وهو الفراء يموت وفي نفسه شيء من (حتى)!!

هل يصلح هذا (النحو) أداة مناسبة في عصر يبلغ فيه (الصراع اللغوي) أشده، وتعمد فيه كل دولة إلى نشر لغتها بأحدث الطرق الممكنة وأبسطها؟

وبسبب من هذا (النحو التقديري) ضاع ألق تفسير القرآن وشرح الحديث، على يد كثير من المفسرين والمحدثين الذين انشغلوا بالأداة أكثر من انشغالهم بالمضمون، والذين قتلهم (الجزيء اللغوي) فلم يصلوا إلى حقيقة (البناء) الكلي للإسلام.

* * *

وإذا ذهبنا نستعرض جميع حضارات الأرض.. الفرعونية.. الإغريقية.. الرومانية.. الإسلامية.. الأوروبية.. بل إذا استعرضنا الحضارات المندثرة التي حصرها (أرنولد توينبي) في إحدى وعشرين حضارة.. فإننا سنجد أن (العقل) أو (العلم والدين) هما القاسم المشترك بين كل هذه الحضارات!!

وبمقدار ما يكون استعمال العقل غالبا والشغف بالعلم وتيسير ظروفه متحققا.. بمقدار ما ترتفع الحضارة على غيرها من الحضارات!

وهذا (العلم) ذاته، يحتاج إلى (علم) يحميه، فلا علاج للعلم الجزئي المنحرف، إلا بعلم كلي صحيح. كما أنه لا علاج للعقيدة المنحرفة إلا بعقيدة صحيحة.. فعندما انحرف (علم الفراعنة) وتحول إلى عبادة للطاغوت، وإلى سحر يخدع العقل- جاء العلم الصحيح يلقف ما صنعوا، وعندما انحرف الأثينيون في عهد السوفسطائيين.. (أثينا بركليز وأرسطو) جاء المنطق يضع للعقل القواعد التي يتحرك فوق قضبانها، و(الترومتر) الذي يميز به الفكر الصحيح من السقيم!! ولما بدأ (العقل المسلم) يدخل مرحلة الترف الفكري منذ عهد المأمون، وأخذ بقيادة المعتزلة يلعب بالجزئيات، ويعمد إلى تفريغ الكلمة من جانبها الفاعل الحركي إلى مجرد كلام يغلب فيه الخصم.. ظهر أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) يكتب (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وظهر أبو

حامد الغزالي (٥٠٥هـ) يعيد صياغة علوم الدين، فيما عرف باسم (إحياء علوم الدين) ويكتب (فضائح الباطنية)، ثم ظهر أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٢٧٨هـ) يكتب (الرد على المنطقيين) و(السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية).

وظهرت على امتداد حضارتنا كتابات كثيرة تحمل الطابع التنظيري الشمولي، وتنكر -ضمنا- هذه الجزئية المدمرة.. وكمثال، ظهرت في الفكر الاقتصادي كتابات محمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) صاحب كتاب (الاكتساب في الرزق المستطاب)، وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة (ت١٩٢هـ) مؤلف كتاب (الخراج)، وأبي عبيدة القاسم بن سلام (ت٢٥٤هـ) صاحب الأموال، والمقريزي (ت٨٤٥هـ) صاحب إغاثة الأمة في كشف الغمة..

وفي الفكر الاجتماعي -كمثال- ظهرت مقدمة عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) فكانت منعطفًا جديدًا كان حريًّا أن يحدث ثورة في الفكر التاريخي والاجتماعي لو وجد استجابة ملائمة.. وفي الفكر السياسي ظهرت كتابات الماوردي (٤٥٠هـ) صاحب الأحكام السلطانية، وابن القيم -تلميذ ابن تيمية- صاحب كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية).. والطرطوشي صاحب (سراج الملوك).. وغيرهم.

والفرق بين حضارة وحضارة ليس في أن هذه لديها علم وهذه لا تملك علما، فقد ذكرنا أن العلم قاسم مشترك، وإنما تتفاوت الحضارات في أن هذه ذات علم وصل إلى مرحلة (التركيب) وإلى استخلاص (القوانين العامة) والمبادئ السياسية، والمناهج الموضوعية.. وأن تلك تستنزف علمها في قضايا فرعية وخيالية، أو قضايا من الدرجة العاشرة أو العشرين، بينما تغفل الوقوف عند القضايا ذات الأهمية المصيرية، وإذا وقفت عندها فإنها تقف متحمسة انفعالية، وتتناولها بالطريقة نفسها التي تتناول بها القضايا الفرعية.

ومن هنا يبدو التقارب في منهج التناول الذي خضعت له كل العلوم الإسلامية والعربية.. فمنهج علم الكلام قريب من منهج الفقه، والأخير قريب في منهجه من التفسير، والنحو والصرف والبلاغة.

لكن أين البناء الكلي للعقيدة على أساس من كتاب الله، وأين الإطار الشامل للفقه، بحيث يصبح (فقهنا) نظرية اقتصادية، واجتماعية، تغنينا عن استيراد النظريات الاقتصادية والاجتماعية من شرق أو غرب وتعبر عن هويتنا العقدية، وتقف كتركيب يزاحم، بل ويهزم، ما يعرض الآخرون في سوق النظريات.

إن بناءنا الفكري لنظرية في الاجتماع والاقتصاد، يحمل في أركانه وبين ثناياه خصائص عقيدتنا، وأخلاقيات حضارتنا، هو خير أسلوب في الدعوة إلى الإسلام،.. إذا كنا حقا مسلمين، نسعى لخدمة هذا الدين!

* * *

إن جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث) يحدثنا عن أبرز الخواص التي امتاز بها الإنسان.. فيرى أنها ثلاث خواص:

١- قدرة الإنسان على التفكير الخاص والعام.

٢- التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

٣- وجود الوحدات الاجتماعية[١].

والحقيقة أننا- نحن المسلمين- لا نجد جديدا في كلام هكسلي.. لكننا-مع ذلك وللأسف الشديد- نجد أنفسنا في حاجة ماسة إلى تطبيق هذه الخصائص الإنسانية الثلاث على واقعنا.. فقدرتنا على التفكير العام، وقدرتنا العقلية على التوحيد النسبي، واستخلاص القواعد الكلية والرؤية الشاملة، وتخطي الجزئيات.. هذه القدرات تحتاج إلى علاج حاسم.. يأتي عن طريق تكوين (العقل الجماعي) في سائر أمورنا.

إننا لم ندخل عصر المؤسسات بعد!!

أليس من الغريب أن الأمة الإسلامية تفشل في ترجمة -مجرد ترجمة- لدائرة المعارف الإسلامية؟

---

(١) الإنسان في العالم الحديث، ص ٣٢، ترجمة حسن خطاب، طبع القاهرة، بدون تاريخ.

وأليس من المحزن ألا توجد دائرة معارف إسلامية أو عربية أو تركية أو فارسية على غرار الدوائر العلمية التي أنشأها الغرب، وكون من أجلها مراكز أبحاث متخصصة.

وأليس من المحزن أن نتطفل جميعا على كتاب (المعجم لألفاظ الحديث النبوى) الذي صدر بإشراف (أ. ى. ونسنك، و ى. ب منسنج).

وإنك لتستطيع أن تنظر في غلاف أي جزء من أجزاء المعجم المذكور لتعرف الفرق بين (العقل الجماعى) وبين الجهود الفردية المحدودة... إن صفحة الغلاف تقول لك:

إن هذا العمل الذي بين يديك تضافر على إعداده – باستثناء الباحثين المذكورين آنفا-:

١ – ى. بردخمان.. الذي تابع النشر بعد (ونستك) و(منسنج).

٢ – الاتحاد الأممي للمجامع العلمية.

٣– والمجامع العلمية البريطانية، والدانمركية، والسويدية، والهولندية، واليونسكو، وإلك ف. س، والهيئة الهولندية للبحث العلمي البحت.

إن هذا هو ما نسميه بالعقل الجماعي، أو المؤسسات العلمية المستوحاة من تراثنا- كذلك- وليس لمجرد التقليد، فكلنا يذكر بيت الحكمة وكلنا يذكر المكتبات العامة التي أنشأها (الحكم بن عبد الرحمن الناصر) في الأندلس، وكلنا يذكر المؤسسات التي أنشأها (المأمون العباسي) للترجمة. ونذكر- كذلك – بالفخر- دون أن نحاول المحاكاة- مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي... ومدرسة البصرة والكوفة.. والفقه المصري والفقه العراقي، والاتجاه المغربي المالكي... وغيرها من المدارس والتيارات المتعاونة والمتداخلة أحيانا، والتي يخضع كل منها لمنهج ورؤية و(أصول) تميزه!!

بل إن بعض هذه المدارس كان يسير وفق منهج يلتزم به في العقيدة والفقه والنحو... وأسلوب الحياة.

وابن حزم الظاهري من هذه الأدلة القوية الشامخة على هذا الاتجاه المنهجي الواحدي!!

إنه طبق المنهج الظاهري على دراسته للعقائد والفقه والنحو.. بل والعواطف الشخصية!!

ونحن لا نتبنى آراء ابن حزم في كل ما رأى، كما لا نرى أن يكون هناك التزام مذهبي صارم.. فهذا الالتزام المذهبي حائل دون الاجتهاد والعقلانية التي ندعو إليها... وإنما نرى أن يكون هناك منهج علمي واضح، ومدارس للاجتهاد تمثل العقل الجماعي، وترعاها مؤسسات تنشأ باسمها.. ومؤسسات للفقه، وللغة العربية، وللأدب العربي، ولفقه العقيدة، وللعلوم الطبيعية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية.. وغيرها.

أما الإصرار على الجزئية في التفكير وفي الاهتمام، والفردية في التطبيق والاجتهاد.. فلن يصلا بنا إلى القدرة على المنافسة الحضارية في عالم القرن الخامس عشر الهجري!!

* * *

وليس يعنينا كثيرا أن تعود هذه المدارس على النحو الذي كانت عليه، فلا شك أن ثمة متغيرات وتحديات جديدة يطرحها العصر الحديث.. لكن الذي يعنينا أن تكون هناك (مؤسسات) فكرية تملك القدرة على البحث في المنهج، وعلى إخضاع الجزئيات لهذا المنهج، ويكون من حقها- أكثر من غيرها- استخلاص الأحكام العامة.. وتطوير مناهج البحث في تخصصها.. وإنجاز المشروعات الكبرى.. إن الموضوع العلمي ليس هو القضية.. بل المنهج العلمي هو العمود الفقري للتطور. وإن العلم لا يرتبط بموضوع معين؛ لأن موضوعات البحث العلمي تتعدد، وكما يذكر الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه حول (المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري) فقد يكون موضوع البحث العلمي هو تركيب المادة أو هو التفاعل بين عنصرين أو أكثر من عناصر المادة، أو قد يكون موضوعه هو حركة الأفلاك أو مسار الضوء أو سرعة الصوت أو فاعلية الكهرباء، أو سقوط المطر أو هبوب الريح، أو قد يكون موضوعه أوزان الشعر العربي أو خصائص فن العمارة في عصر من العصور...[1].

(١) د/ زكي محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، القاهرة، دار الشروق، ص٦٠.

ومن جانبنا نقول: إن موضوعه قد يكون قضايا العصر الفقهية الملحة، أو تطوير تعليم اللغة العربية للأجانب والعرب، أو بناء نظرية اجتماعية إسلامية، أو نظرية تربوية.. أو نفسية، أو اقتصادية إسلامية.. كل ذلك يخضع للمنهج العلمي الجماعي الرصين.. الذي يتميز بوضع الجزئيات في نسيجها المتشابه والمتشاكل.. وفي إخضاعها لقانونها، وفي استنباط القوانين والقواعد منها.. شريطة أن نلتزم الحذر والدقة والاستقصاء في خطوات بحثنا.

إن الدكتور زكي نجيب محمود (وهو كاتب موضوعي غير منحاز لتراثنا) لم يملك نفسه من الإعجاب بالدور المنهجي الممتاز الذي لعبته حركة دراسة اللغة العربية في عصور الازدهار.. إنه يقول: (ولست أنا الكاتب الذي يستطيع أن يحدث القراء بشيء من التفصيل المفيد عن هذه الحركة في دراسة اللغة ونحوها وصرفها، لكنني أترك حقلا عجيبا في دقته العقلية، غزيرًا في خصوبته وثماره، إذا أنا تركت حقل الدراسات اللغوية وما يدور حوله من أبحاث كادت تبلغ مبلغ الدقة الرياضية في دقة التحليل وفي سلامة الاستدلال.

وأول ما نلحظه في هذا الصدد هو الصلة الحميمة الوثيقة بين بحوث الباحثين وبين حياة الناس العملية، حتى في مثل هذا المجال. اللغوي، الذي قد يبدو لِعَين القارئ العربي اليوم وكأنه مبتور الصلة عن تلك الحياة، جريا منه على ما قد ألفه في عصره هذا من بعد الشقة في كثير جدًّا من الحالات بين رجال اللغة من جهة، وضروب النشاط العملي من ناحية أخرى، حتى لقد سار فينا سريان الأمثال أن يكون رجل اللغة العربية ونحوها ومعاجمها ومصادرها وتصاريفها- رجلا غريبا على مسرح الحياة اليومية، لا تسيغ سمعه الآذان، إذا حرص على ضبط اللغة مقروءة أو مكتوبة..لا... لم يكن رجال البحث اللغوي إبان الفترة التي نتحدث عنها مبتوري الصلات عن مجرى الحياة العملية ومشكلاتها، ومن ثم كانت منزلتهم العليا عند الناس!!)[1].

* * *

(١) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكرى، ص ٨٤.

إن ما نريد أن نصل إليه وأن يستقر في الأذهان هو ضرورة أن ندخل عصر العلم كما دخله أسلافنا، فإنهم ما دخلوه إلَّا لكي ينجحوا في إبداع حضارة ترتفع إلى مرتبة قيادة عصرهم.. ونجحوا.

ويظن بعض الناس أننا عندما تفوقنا ونشرنا ديننا إنما تفوقنا بدفعة الروح وحدها، متجاهلين دفعة العقل كذلك.

إننا لو نظرنا إلى العواصم الإسلامية.. دمشق.. بغداد القاهرة.. المدينة.. قرطبة.. مكة.. القيروان.. فاس، وقارناها بعواصم أوربا وإفريقيا وآسيا- غير الإسلامية- لعرفنا أننا كنا نحكم العالم.. بالعلم والدين معا.. وكانت لغتنا- كالإنجليزية الآن- هي لغة الحضارة، وهي لغة الثقافة العالمية.. ولا يصلح طبيبًا ولا فلكيًّا ولا رياضيًّا ولا فيلسوفا.. إلا من يتعلمها.

وحتى- بعد هذه الدفعة الأولى- وعندما التقينا بالصليبيين اللقاء العالمي الذي استمر قرنين.. والذي هزمناهم فيه.. حتى في هذا اللقاء كنا العلماء، وكانوا الجهلاء.. وبهذا – بعد الدين – انتصرنا.. كان صلاح الدين الأيوبي في عقله ورفيع خلقه ودينه أفضل من ملوك أوربا.. وكان طبيب صلاح الدين أعلم- بخمسة قرون على الأقل- من طبيب ريتشارد قلب الأسد، وكان (سكرتير) صلاح الدين.. العالم الكبير (القاضي الفاضل) أعلم من أي مساعد أو كاتب- إذا كان هناك كاتب- لدى ملوك أوربا النصرانية- وخيول صلاح الدين كانت أسرع وأقوى من خيول النصارى البطيئة!!

في كل حروبنا.. نجد لمسة العلم – بعد دفعة العقيدة وراء انتصارنا – ولم ننتصر أبدا بجهلنا وتخلفنا واستيرادنا.. كلا.. فما تقوم حضارة أبدا ولا تنتشر عقيدة أبدا تحملها عقول محاصرة بالجزئيات، مدمرة بالشكليات، مليئة بالترهات، لا تتفوق على عصرها (في أسلوب التفكير العلمي، ولا في طرق البحث العلمي، ولا في التطبيق العلني للمعارف التي تصل إليها).. وهذه الثلاثة هي الأركان الأساسية التي يقوم عليها العلم، أي علم!!

ونحن نعلم أن هناك بعضًا من المتحمسين يربطون بين (العلم) وبين (أوروبا) ولأنهم يرفضون أوروبا- وهم محقون- فهم يرفضون بالتالي- العلم!! كلا..فإن هذا الخلط واحد من الأخطاء الكبيرة التي سيطرت على عقول المسلمين.. ولنبدأ في تحليل هذه القضية من تراثنا نفسه قبل أن نصل إلى العصر الحديث.

فإن أوروبا- كما هو معروف- قد جلست من أساتذة الحضارة الإسلامية مجلس التلميذ، وتلقت- حتى رهبانها- العلم على يد علماء، بل وفقهاء قرطبة، وأشبيلية، وبجاية، وفاس، والقيروان.. وقد سرقت من مخطوطاتنا ما لا يعلم إلا الله، واحتفلت بعلمائنا أكثر منا، وقررت كتبهم في جامعاتها..

أجل لقد اعتصرت أوروبا كل علمنا، ووضعته على مشرحة البحث والتحليل، لكنها مع ذلك رفضتنا.. إنها ترفض عقيدتنا فحسب، بل إنها رفضت حتى صياغتنا للحياة، بل إنها- لم تكتف بهذا- فعمدت إلى تشويه حقائق الإسلام، وجندت لذلك جيوشا من المبشرين والمستشرقين، حتى تحول دون وصول الإسلام إلى أوروبا..

لقد اتخذت أوروبا ضدنا كل وسائل الوقاية.. ومع ذلك فقد أخذت كل ما في أيدينا تقريبا من علوم ومعارف!!

وبعد ذلك، وبعد انتصارنا عليها في الحروب الصليبية بالعقيدة وبالخيول السريعة، وبالعلم الذكي، وبالقيادة الواحدة الرشيدة، بعد ذلك- وفي غفلة وجهالة منا استمرت عدة قرون- فاجأنا نابليون بونابرت في سنة ١٧٩٨ بالمدفع المحمول على عجلتين.. فانهارت أمامه خيول المماليك الذين- لم يتعلموا علم عصرهم- وأصروا على القتال بخيول سريعة.. في عصر انتهت فيه حروب الخيول..واشتعلت حروب العقول!!

وفي عصرنا الحديث عرفت اليابان هذا السر، ولم تكابر، ولم تذهب لشراء الحضارة أو منتوجاتها، أو للحصول على شهادات أوروبا في العلوم الإنسانية أو في الديانة البوذية أو في اللغة اليابانية.. أو في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والآداب والفنون.. كلا فهذه علوم خاصة تتصل بشخصية الأمة، وتعلمها خارج نطاق الأمة نفسها عبث وتبعية فكرية.. وانتحار!!

وإنما ذهبت اليابان لشيء واحد.. للعلم والتكنولوجيا.. اللذين هما سر تفوق أوروبا، ولا تفوق لها في غيرهما.. بل إنهما ليستران عوراتها الكثيرة..

وبإيجاز.. إن الحضارة الأوروبية الحديثة لها جانبان:

١- جانب شخصيتها والعلوم المتصلة بها.. بدينها المسيحي وبنظمها الليبرالية ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وموروثاتها الثقافية والاجتماعية.. وألعابها الرياضية.

٢- جانب عطائها العلمي (أسلوبا، وطرائق، وتطبيقا) وهذا جانب إنساني وعلمي عام، وكما أن استيراد الجانب الأول (الجانب الشخصي) تدمير للأمة، كذلك فإن إغفال الجانب الثاني العلمي البحت تدمير للأمة بالمستوى نفسه!! ونحن- للأسف الشديد- قد ذهبنا إلى أوروبا نأخذ الأول.. وكرد فعل، رفض بعضنا الثاني.. وكلا الأمرين خطأ، والمعادلة الصحيحة أن نتجه لأخذ كل علوم أوربا التقنية ولست أعني بالأخذ استيراد منتوجاتها فهذا غاية الدمار، وإنما أعني معاناتها وفهمها وتطويرها وتصنيفها، تماما كما فعلت اليابان!!

ومن أغرب الغرائب في مواجهتنا للحضارة الأوربية بعد ظهور مدافع نابليون المحمولة على عجلتين وسريعة الحركة التي فاجأ بها خيول المماليك على مصر سنة ١٧٩٨- أننا ذهبنا بقيادة رفاعة الطهطاوي، ومرورا بطه حسين، وسلامة موسى، وكمال أتاتورك، ولطفي السيد، وأمثالهم.. ذهبنا نعب من العلوم الشخصية للغرب، ونترجم الإلياذة والأوديسة وندعو إلى اللاتينية.. بل واليونانية والرومانية.. وإلى لبس (القبعة).. ونتمنى لو تعلمنا مصارعة الثيران إضافة إلى كرة القدم..

بينما لم يبذل أي جهد محترم في معرفة (العلوم البحتة) وممارستها وإدخالها إلى حياتنا.. وكان هذا الاتجاه الخاطئ- وما زال- بتوجيه من الاستعمار نفسه سببا في ضياع قرنين كاملين منذ ضربتنا مدافع نابليون.

بينما نشاهد أمامنا دولا دمرت ثم قامت وتفوقت في أقل من ربع قرن.. لماذا؟

لأنها تعرف الطريق!!

* * *

سيطرت على مسيرة تاريخنا ذي الأربعة عشر قرنا ونَيِّف، ولا سيما في فترات الانحلال، قاعدة غريبة هي أن يوسد الأمر إلى غير أهله!!

وقد زاد الطين بلة في العصر الحديث أن تلقفت الشعوب الجاهلة - ومن بينها الشعوب الإسلامية - فكرة ماسونية كان لها تأثيرها المدمر في حاضر المسلمين.. إنها فكرة المساواة المطلقة بين الناس، تقيهم وفاجرهم، عبقريهم وخاملهم، مهذبهم وسافلهم، وحق الجميع- وهم على ما هم عليه- في أن يصلوا إلى مراكز القيادة الحضارية في كل المجالات.

وبدهي أن الناس- في الإسلام- متساوون في أصل الفطرة، وفي الحقوق الإنسانية العامة، وفي حق الوصول إلى القيادة الحضارية عندما تتوافر شروطها.. ومتساوون أمام شريعة الله.

أما تفلت أمور الأمة بحيث يتأخر علماؤها ومفكروها، ويعتزلون الحياة حرصا على كرامتهم ومكانتهم الضائعة، وفي المقابل يتصدر الجهلة، تحت أية لافتة- فتلك كارثة كبرى توشك أن تصيب حضارتنا بالعقم الشديد.

وفي كثير من أدوار حضارتنا سيطر كثير من الجهلة والمنافقين، وكانوا في كل ما يأتون ممثلين لأنفسهم فقط ولا يمثلون الإسلام ولا سياسته الشرعية ولا قانونه الحربي ولا نظامه المدني، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر.

وكما ذكرنا فقد تقلد هؤلاء الأمور في معظم دورات تاريخنا وإليهم تعزى كل مصائبنا ونكباتنا...

وقد حجبوا بسلطتهم وجهلهم كل الكفايات، ومنعوا كل مستشار أمين من أن يكون له نفوذ، ولم تعش معهم إلا طبقات الوصوليين المنافقين!!

وأصبح الأمر كما قال الرسول ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».. لأن كلمة الحق عند هؤلاء كانت تساوى حياة قائلها. **وبالتالي**: انكمشت الصفوة وساد

الغوغاء ووضع مصير الأمة في يد اللصوص وأشباه اللصوص.

(وكان من جراء هذا الخلل أن زالت رقابة الدين والأخلاق، واختفت الحسبة، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، وتنفست الجاهلية ورفعت رأسها، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم، وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات) [1].

* * *

إن رفض مبدأ (المساواة المطلقة) الذي تتستر وراءه المذاهب الفوضوية وأتباعها من الجهلة والغوغاء.. وفي الجانب الآخر رفض مبدأ تمتع (أقلية مسيطرة) لا تملك القدرة النفسية ولا الخلقية ولا الفكرية على القيادة.. هذان الرفضان ضروريان للقيام بنهضة إسلامية معاصرة.

إن العالم المتحضر يقوده خلاصة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتع- كقيادة حضارية- بكل الإمكانات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت (اليابان) بعد أن دمرت في الحرب العالمية الثانية إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وكلاء الوزارة وصلاحيات وكلاء النيابة، ووفرت لهم كل إمكانيات البناء، أما طبقة (العلماء) أو (التكنوقراطيين) فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أي صفوة ممتازة في الحضارات السابقة.

ولذا.. فليس عجبا أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشارك في قيادة العالم.. بعد أن كانت قد دمرت تدميرا شبه كامل بأسلحة أمريكا الذرية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن (تستشار) على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني- في خطوات الطريق الحضاري للأمة المسلمة.. على أن تكون هذه الطبقات موثوقا بها في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٩١، طبع الاتحاد الإسلامي العالمي.

أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

وإن أمر الأمة يجب أن يكون شورى بينها، سياسة واجتماعا واقتصادا وفكرا.. ومن باب أولى يجب أن يكون شورى بين أهل الحل والعقد فيها، ويجب أن توضع القواعد والنظم لكي لا يصل إلى الإمارة والحكم والقيادة إلا خيار الأمة وصفوتها، لا أن يترك الأمر فوضى دون ضوابط وقواعد.

ومن خلال الخطين المتكاملين- لا المتوازيين- أي خط القيادة الحضارية المتمثلة في الصفوة المختارة.. وخط الرعية المسئولة أيضا قدر حجمها «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلم الحضارة بانسجام وتآزر.

(ولا ريب أن أعباء ومسئوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المستقبل، والتطلع إلى الأعلى، تلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة، وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة، بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والصعود الحضاري.

وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحة الأفق، مدركة لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأساليب الحياة المستجدة، وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها، فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة) [1].

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجم تطلعات الأمة إلى واقع ملموس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها، وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر...

---

(١) محمد علي، الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض١٣٩٩هـ.

وتمضي سفينة الأمة متخطية العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام، ووعيها الحضاري الكامل.

والحق أن أمتنا الإسلامية- صفوة وقاعدة، قيادات وشعوبا - في حاجة إلى إعادة احترامها وتقديرها الكامل لأساسين كبيرين:

أولا: الإنسان.

ثانيا: الوقت.

والإنسان في حقيقته كائن متصل اتصالا وثيقا بالحقيقة الزمنية، وهو لا يستطيع أن ينفك عنها.. فضياع الوقت إنما هو بالتالي ضياع للإنسان.. كما أن ضياع الإنسان.. وإهماله يعني- كذلك- الضياع للأساس الثابت في أي عمل حضاري.

وهذان الأساسان ينتظمان في كل عناصر الأمة، ولا غنى عنهما - أي عن احترام الحقيقة الإنسانية، واحترام عنصر الزمان - بحال من الأحوال.

أما الصفوة المختارة، التي تمثل عناصرها القيادة الحضارية للأمة، أو الطليعة المؤمنة الراشدة.. أما هذه النخبة، فلابد من أن يتحقق فيها شرطان أساسيان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر..

إن انفصال هذين الشرطين هو أكبر أسباب البلاء التي حاقت بمسيرة الأمة الإسلامية.. وأدت إلى كثير من التقلبات والهزات.

إن هذين الشرطين اللذين يمثل التحامهما وامتزاجهما (معادلة صعبة) هما:

١ - القوة.

٢ - الأمانة.

وإن القوة وحدها لا تكفي، بل هي سبيل لتدمير القوي لنفسه ولأمته.

وإن الأمانة وحدها لا تكفي، بل هي سبيل استبداد الحجاب والوزراء والمنافقين، وتاريخنا مليء بالشواهد على استبداد الطبقات الأدنى في القيادة حين تلمس (الأمانة والضعف) في الطبقات الأعلى!!

يقول الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في كتابه العظيم (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) محللا هذه المعادلة ومبينا رأيه فيها، بأسلوب رائع.. يقول في الفصل الثالث الذي جاء تحت عنوان (قلة اجتماع الأمانة والقوة في الناس):

(اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررا فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أمينا (!!)، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغْزَى؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوى الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وروي: «بأقوام لا خلاق لهم» فإذا لم يكن فاجرا، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده.

ولهذا كان النبى ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال: «إن خالدا سيف سله الله على المشركين» مع أنه أحيانا كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه- مرة- رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة، حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم؛ ومع هذا فما زال يقدمه في باب الحرب؛ لأنه كان أصلح من غيره، وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر ﷺ أصلح منه في الأمانة والصدق ومع هذا قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم» رواه مسلم... ينهى أبا ذر عن الإمارة والولاية؛ لأنه رآه ضعيفا. مع أنه قد روي: « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر».

وأمَّر النبي ﷺ مرة عمرو بن العاص في غزوة (ذات السلاسل) استعطافا لأقاربه

الذين بعثه إليهم، على من هم أفضل منه. وأمَّر أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه. ولذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة، مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه، في العلم والإيمان!!) [1].

* * *

إن هذا النص حريٌّ أن يكتب بأظهر مداد، وحريٌّ أن يوضع في برامجنا لإعداد القادة المفكرين أو العسكريين أو الوزراء السياسين أو الإداريين!!

ولو أن رجلا غير ابن تيمية قال هذا الكلام لما قبله كثيرون. أما وصاحبه ابن تيمية، الرجل الذي أثبت لنفسه مكانة رفيعة في تراثنا وحضارتنا- فإن أحدا من الناس لا يستطيع أن يطعن فيه!!

إن فقيهنا المجدد... صاحب أكبر موسوعة للفتاوى في تاريخنا- فيما نعلم- يفتي المسلمين- في صدق الرائد الذي لا يكذب أهله- بأن التقوى لا تكفي.. وليست هي المؤهل الوحيد للقيادة، ولصناعة الحضارة، ولتسيير مصالح العباد، وتحقيق النفع لهم.. بل إنه ليفتيهم اعتمادا على سلوك النبي محمد إمام حضارة المسلمين عليه الصلاة والسلام- بأن التقوى ما لم تصحبها قوة فإن ضررها قد يكون أكثر من نفعها بالنسبة للأمة.

ومن منا يرتاب في تقوى أبي ذر؟.. ذلك العلم الفذ الذي يموت وحده ويبعث وحده!!

لكن هذه التقوى قد تكون غير مصحوبة بقلب قوي، وعقل عملي، ورؤية شاملة متجددة للوقائع المتطورة، وبالتالي قد تكون آثارها محصورة في إطار صاحبها، ولا تستطيع أن تمنح دفعة التغيير المناسبة.

بل إن الإمام ابن تيمية يرى أن (مصلحة الأمة) هي المقياس، فقد يقدم الفاجر إذا كان في تقديمه المصلحة.. والرجل يقول بصراحة يعجز عنها كثيرون: (والواجب في

---

(١) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، السياسة الشرعية، طبع وزارة الشئون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ، ص ١٥، ١٦.

كل ولاية الأصلح بحسبها) [1]... ويؤيد كلامه بقول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: (أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين)!!

أجل إن القوة هي الشطر المكمل للأمانة، والذي لا تتقدم الحياة إلا به في عصر يركل الضعفاء، ويبحث عن الأقوياء ويسميهم الخبراء.

ويؤيد الرأي الذي ذهب إليه الإمام ابن تيمية ما ورد في القرآن الكريم في معرض الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع شعيب... فقد كانت (قوة موسى) هي المؤهل الأول الذي رشحه للعمل عند شعيب... وقد جاءت بعدها الأمانة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].. وهذا حق... فكيف تنجح القيادة الحضارية في أي مجال إذا لم يكن لديها قوة؟!!

وكيف تفيد الأمة وتحرس قضاياها إذا لم يكن لديها أمانة؟!!

أجل: إنها (معادلة صعبة).. لكنها – مع ذلك – الحل الحضاري الوحيد لمشكلة (القيادة) في تاريخنا..!!

* * *

الضمير الإسلامي.. وحقوق الإنسان المسلم

يعطينا القرن الرابع عشر المنصرم والعقود الأولى من القرن الخامس عشر عدة دلالات يجب أن تستقر في ضمير المسلم.

– ومن أبرز هذه الدلالات أنه لا أحد في العالم يشفق عليه أو يأبه به أو يحترم إنسانيته، على الرغم من لافتات حقوق الإنسان وهيئاتها المختلفة!!

– والضمير العالمي.. ضمير النصارى واليهود والشيوعيين ضمير ميت إزاء الإنسان المسلم.

---

(١) السياسة الشرعية، ص ١٥.

فقد يقتل أو يؤسر عشرون جاسوسا أمريكيًّا أو بريطانيًّا أو فرنسيًّا.. فتقوم الدنيا ولا تقعد.. ويتجمع العالم كله من أجل حقوق الإنسان وهيبة المدنية والأعراف الدولية والدساتير والقوانين المتحضرة.. وهلم جرا.

لكن – على النقيض من ذلك – قد يباد شعب مسلم بأكمله.. يبيده الروس، أو يبيده حاكم مأجور، أو تبيده اليهودية، أو النصرانية.. فهنا... ينام الضمير الأوروبي نوما عميقا، بل قد يدافع عن هذه التصفية الجسدية العامة ويلتمس لها المبررات والأسباب!!

وقد ثبت أن أوروبا وأمريكا وروسيا على استعداد لتصدير كل شيء إلينا.. من طائرات وملابس وتيارات فكرية مدمرة وحبوب منع النسل المسلم.. أجل كل شيء إلا الأشياء النافعة نفعا حضاريًّا مستمرًّا...

– فهي ليست على استعداد لأن تصدر مبادئ الحرية التي تتشدق بها.. بل بدلا منها تقوم بتصدير الانقلابات العسكرية الدكتاتورية فقط!!

– وليست على استعداد لأن تصدر التكنولوجيا المتطورة.. بل يكفي أن تعطينا منتوجات التكنولوجيا.. وحسبنا أن نكون مستهلكين!!

– وليست على استعداد لأن تعطينا القنبلة الذرية... في مواجهة إسرائيل والهند.

وإزاء هذا الضعف المعنوي والمادي الذي تريد فرضه علينا القوى المعادية لكي نموت مخذولين أو نعيش مقهورين... فإنه من المحتم علينا أن نبحث نحن عن حقوق أنفسنا المادية والمعنوية... ولأنه في عالم القرن العشرين ثم القرن الحادي والعشرين لا حقوق للضعفاء فقد سمحت لنفسي أن أمزج بين أهمية حصولنا على (حقوق الإنسان والتكنولوجيا والذرة).. وكل ذلك بالطبع في إطار أصالتنا الإسلامية!!

والحقوق لا تمنح... وإنما تفرض!!

والطريق إلى فرض الحق.. هو أداء الواجب.. وأداء الواجب يستلزم القوة.. ويؤدي إليها..

وإن ملفات الأمم المتحدة وقراراتها تثبت أن هذا العالم الذي تُسَيِّره أمريكا وتعبث بمصيره الصهيونية العالمية لم يعط أي ضعيف حقه.. كما أن هذه المنظمة أعجز من أن تفعل أي شيء لمن لا يفعل لنفسه ويسعى إلى مصلحتها!!

والخريطة الإسلامية مثخنة بالجراح.. إنها كمأدبة الأيتام يقتسمها اللئام..!!

ولا أمل في استعادة هذه الخريطة لهيبتها وحقوقها إلا بيقظة الضمير الإسلامي والعقل الإسلامي والروح الإسلامية..

وفي الداخل.. داخل المجتمعات الإسلامية.. قبل خارجها يجب أن تستقر قواعد حقوق الإنسان المسلم بضميره اليقظ، وعقله الواعي البصير، وإرادته الإيجابية، وواجباته المؤداة، وروحه المؤمنة – حقوقه على جميع من يوجهون دفة الأمور في داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها.

وفي تصورنا أن الطريق الوحيد لتحقيق حرياتنا ضد القوى الخارجية هو أن تتحقق حرياتنا وإنسانيتنا في داخل المجتمعات الإسلامية.. وذلك بأن تعود المجتمعات الإسلامية إلى داخل قضبان الحضارة.. فتحكم الرعية والرعاة بشريعة واحدة ثابتة لا بقوانين استثنائية ولا بأحكام عرفية ولا بدكتاتوريات تستمر أحقابا وأجيالا...

وبعيدا عن الاستطرادات التفصيلية نرى أن (**حقوق الإنسان المسلم**) تتلخص في الأساسيات الآتية:

١ – الحق في حماية الحياة وتوفير الطعام والملبس والمسكن والدواء والتعليم والأمن للإنسان المسلم.

٢ – العدل.. فلا يقتل الإنسان بالظنة، ولا يؤخذ البريء بذنب الجاني، وحق أي إنسان في مقاضاة أي إنسان أمام قضاء محايد.

٣ – المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع.

٤ – حق المشاركة في أمور بلده وأمته سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا.

٥- الحرية في الاعتقاد والتفكير والتعبير في إطار الشريعة الإسلامية.

٦- حقه في عصيان ما يخالف دينه.. لأن دينه يأمره بهذا ويقول له: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢]، ويقول له: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

٧- الحق في حماية السمعة والعرض والحياة الخاصة التي تخلو من عنصر المجاهرة وتحدي المجتمع.

٨- حماية الملكية الخاصة المكتسبة بالطرق المشروعة.

٩- الحق في أخذ الأجر الملائم دون إراقة ماء الوجه.

* * *

وعلى المستوى الخارجي.. فإن الضمير الإسلامي يجب أن يستيقظ، ويتحدى التآمر العالمي ضده.. ففي قارة آسيا- ونترك الآن الكتلة الشيوعية - أقليات إسلامية محرومة من حقوقها الإنسانية، في تايلاند، وبورما، والفلبين، وتايوان وسيلان، ونيبال، وهونج كونج، ولاوس، وكمبوديا، وفيتنام.

ومذابح المسلمين في الفلبين، ومساعدة أوربا وأمريكا لسفاحها (ماركوس) أمر معروف، وفي إفريقيا أقليات أخرى محرومة من حقوق المساواة والتعليم الإسلامي والحياة الآمنة واقتناء الكتب الإسلامية أو تكوين إطارات تدافع عن حقوقها الإنسانية المهضومة.. وكل ذلك تحرسه أوروبا وأمريكا..

ومن هذه الأقليات مسلمو غانا، وأوغندة بعد عيدي أمين، وأنجولا، وكينيا، وليبريا، وموزمبيق، وروديسيا الشمالية (زامبيا)، وروديسيا، ومدغشقر. ولا نظن أن الأكثريات الإسلامية في آسيا وإفريقيا تتمتع بحقوق الإنسان،.. كلا.. وألف كلا.. فإن الأجهزة العالمية المتآمرة تأبى أن تترك هذا العالم الإسلامي ينطلق من عقاله.. لكي يعمل ويتقدم ويبدع، وهي ترصد كل هاجسة تقدم حقيقي، وتقاومها بأعنف الوسائل وأكثرها وحشية وهمجية.

وأمامك أربع دول إسلامية كبرى ثنتان في آسيا وثنتان في إفريقيا.. باكستان وأندونيسيا في آسيا، ونيجيريا ومصر في إفريقيا.. انظر ماذا آل إليه أمرها!!

فأما الأولى فقد أساء إليها حكامها بعد الانفصال عن الهند حين ربطوها بالغرب وبمعاهدة مع أمريكا، وكان جزاؤها أن يحكمها عدد من العسكريين الدكتاتوريين انتهوا بها إلى أن تشطر شطرين، وأن يحرم عليها أن تمشي في طريق التصنيع، وأن تهدد تهديدا صريحا حين يذاع أنها بصدد الدخول إلى الحقل الذري، بينما عدوتها الهند تخطت هذه المرحلة ولم تلق أية مقاومة، وبينما تتمتع إسرائيل- فضلا عن الدول الأوربية- بهذه الطاقة!!

وأما الثانية فقد سلط عليها الشيوعيون بقيادة سوكارنو، وعندما استبد الشيوعيون أسقطوا وحل محلهم التبشير النصراني المدعم من أمريكا وأوربا والفاتيكان، ووضع برنامج لتنصيرها- وهي أكبر دولة إسلامية- في خمسين سنة.

وقد ورد في أحد التقارير أن النصارى يزمعون الانتهاء من تنصير جزيرة جاوة التي يقطنها نحو ستين مليون مسلم خلال عشرين سنة.

وحتى الآن فإن التخطيطات ناجحة كل النجاح، وقد تم تنصير عشرة ملايين مسلم من فقراء أندونيسيا ومرضاها وجهلائها... تنصروا بسد عوزهم وعلاج أمراضهم وتعليم أبنائهم في مدارس التبشير، بينما أموال المسلمين تتخم بها بنوك أمريكا وأوروبا واليهود!!

* * *

وفي إفريقيا حاول النصارى مع أكبر دولة إفريقية إسلامية أسلوب التمزيق وفصل بعض أقاليمها عنها.. فلما فشلت التجربة سلطوا عليها جيوشًا من النصارى وقطعوا وشائجها بالعالم الإسلامي.. حتى تؤكل منفردة..

وفي بعض البلاد الإسلامية سلطوا الشيوعية الدكتاتورية لتقوم بإهدار كرامة الإنسان المسلم، وفتحوا لكل حر كريم، ولكل مفكر مستقل، ولكل مؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة.. فتحوا لكل هؤلاء أبشع معتقلات عرفها البشر!!

فلما سقطت الشيوعية في بعض البلدان كان البديل إحلال أمريكا والصهيونية العالمية، بكل ما عرف عن الصهيونية من وسائل استنزاف الشعوب وتدميرها عقائديًّا وأخلاقيًّا واقتصاديًّا.

وهناك أقليتان إسلاميتان تعتبران من أكبر الأقليات في العالم، وهما الأقليات الإسلامية في الهند، وتبلغ نحو مائة وأربعين مليونا، وتمثل أكثر من ٢٠٪ من مجموع سكان الهند.

والأقلية الإسلامية الواقعة تحت النير الشيوعي سواء في الاتحاد السوفييتي السابق أو الصين.

وتبدأ قصة مسلمي الهند سنة ١٩٤٧م، وذلك بعد استشراء ظاهرة الذبح الجماعي للمسلمين في الهند بمساعدة الإنجليز، وبتواطؤ حزب المؤتمر الذي كان يحكمه جواهر لال نهرو.. ففي هذا العام ١٩٤٧م وافق البرلمان البريطاني على قيام حكومتين في الهند باسم (الهند) و(باكستان)، ولكن أرض الهند لم تقسم بين الهندوس والمسلمين قسمة عادلة، بل سيطر الهندوس يدعمهم الحقد الصليبي البريطاني على كثير من بلاد المسلمين، وكانت حكومة الهند ترسل الجيش ليستولى على المقاطعات المختلف عليها، كما حدث في كشمير التي تبلغ نسبة المسلمين فيها أكثر من ٨٠٪ وكما حدث في حيدر آباد، وكذلك استأثرت بالموانئ الهامة مثل بمباي وكلكتا، وبالمدن الكبيرة كدلهي وبمعظم الثروات الوطنية وأموال الدولة.

ولم يطفئ هذا كله الحقد الوثني، بل قام الهندوس والسيخ بمذابح وحشية بين المسلمين وقتلوا مئات الآلاف في دلهي وامرتسار وغيرهما، وفي عربات القطار المكتظة بالمسلمين المهاجرين من أطراف الهند إلى دار الهجرة (باكستان)، وكان الجيش الهندي هو الذي يشرف على هذه المذابح، وهو الذي يطرد المسلمين الآمنين من بيوتهم في المناطق التي قررت حكومة الهند أن تكون تابعة لها[1].

(١) محيي الدين القضمائي، حاضر العالم الإسلامي، ص٧٩، مطبوعات الجامعة الإسلامية.

وقد بقي في الهند ـ بعد انفصال باكستان ـ أكبر أقلية في العالم.. وهذه الأقلية الكبيرة لا يمر شهر دون أن تدبر لها المذابح، التي يتعاون فيها رجال الشرطة، مع الجماعات الهندوسية المتطرفة، وينغصون على المسلمين كل مناسباتهم الدينية، ويذبحون منهم بالمئات في كل مرة.. دون أن يوضع حد لهذه المجازر المكرورة والمستمرة، ودون أن يرتفع الضمير الإسلامي إلى مستوى المسئولية!

أما قصة الأقلية الإسلامية الواقعة تحت نير الشيوعية، فتبدأ في الاتحاد السوفييتي من سنة ١٩١٨م (١٣٣٦هـ) حين زحف الجيش الشيوعي بعد نجاح الثورة البلشفية على جمهورية أورال وشمال القوقاز (قفقاسيا) وحكومة خوقند في تركستان. وفي سنة ١٩١٩م (١٣٣٧هـ) استولى على جمهورية آلاش أوردو، وفي سنة ١٩٢٠م (١٣٣٨هـ) احتل القرم وجمهورية أذربيجان وجمهورية خيوة في بلاد التركمان، وفي سنة ١٩٢١م (١٣٣٩هـ) هاجم جمهورية بخارى واستولى عليها بعد قتال مرير.

وفي هذه الفترة كان عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي أكثر من ستين مليون مسلم. وقد حاول الشيوعيون أن يغيروا معالم البلاد الإسلامية فهجروا المسلمين من بلادهم إلى مجاهل سيبريا وأواسط آسيا، وأتوا بآلاف الروس والسلاف فأسكنوهم أذربيجان وتركستان والقرم، وهلك من المسلمين عند مقاومتهم خلق كثير حين رفضوا ترك أرضهم والخضوع لهذا المخطط الرهيب، واستطاع الشيوعيون أخيرا أن يغيروا معالم البلاد الإسلامية ويشردوا أهلها..!!

فقد كان في القرم مثلا خمسة ملايين مسلم سنة ١٣٢٥هـ ـ ١٩١٧م فأصبحوا عام ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م أربعمائة ألف، وشبيه بذلك ما حدث لملايين المسلمين في روسيا وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

أما الصين الشعبية فلم تكن أقل اعتداء على المسلمين من روسيا حين اغتصبت بلادهم وحاولت إفناءهم، وكان في الصين خمسون مليونا من المسلمين وأكثر من ٤٢ ألف مسجد كما جاء في إحصاء ١٩٣٦م ويسكن هؤلاء المسلمون مقاطعات واسعة

أهمها سينكيانج ومنشوريا وهابي وهانان وسان نو، وغيرها. ولم يكن مصير المسلمين في الصين أفضل من مصير إخوانهم في الاتحاد السوفييتي[1].

وهناك شعوب إسلامية كاملة محرومة من حقوق الإنسان، وتنسحب عليها المؤامرة العالمية ضد الإنسان المسلم. ومن هذه الشعوب شعب (ألبانيا) المسلم الذي وقع فترة طويلة تحت نير الاحتلال الشيوعي، وشعب أفغانستان، الذي حُكم بجيش شيوعي مقيم ثم باحتلال أمريكي غاشم، وشعب أريتريا المسلم الذي يحكمه نصارى أثيوبيا، وشعب أثيوبيا المسلم الذي يزيد المسلمون فيه عن ٦٥٪ وتحكمه أقلية نصرانية رأت أن تتستر في ثوب الشيوعية، وشعب الصومال وعدن المسلمان اللذان يحكمهما حفنة شيوعية، وشعب تنزانيا المسلم (تنجانيقا وزنجبار) الذي كان يحكمه نصراني يتستر في الشيوعية وهو (جوليوس نيريري)!!!

والحق أنه من الصعب استعراض كل أجزاء الخريطة الإسلامية للتعرف على أوضاع مسلميها الممتهنين.. فحتى تلك الشعوب التي يبدو وضعها من الناحية الشكلية القانونية سليما.. فإن إهدار الحقوق فيها بواسطة بعض أبنائها الذين رباهم الاستعمار على عينه، وبغَّض إليهم الإسلام أمر مقرر معروف بحيث إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن عالم المسلمين يحتاج إلى (هيئة إسلامية) ترعى حقوقه المهضومة وكرامته المستباحة... هيئة تنبثق من صفوة الأمة ومخلصيها وفقهائها في القانون الدولي العام، والخاص، ويكون عملها أن تدافع عن إنسانية المسلمين الضائعة.. في عالم تحكمه عصابة من الذئاب، تتشدق ليل نهار بالحرية والإخاء والمساواة والحضارة.. وهي من كل هذه المعاني الكريمة براء.

* * *

الدور العالمي:

لن يستطيع المسلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية في أكثر أركان

(١) محيي الدين القضمائي، حاضر العالم الإسلامي، ص١٦، ١٧، مطبوعات الجامعة الإسلامية.

فكرهم وحياتهم، إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي والانهيار النفسي الذي تحدثه هذه المشكلات، ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسئولية كونية وعالمية، ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحسب، بل تجاه الإنسانية كلها.

وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣].

وكما يقول المفكر الهندي المسلم (وحيد الدين خان): (فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإسلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية)...

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنسانية، التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشريع، كما أن ما اكتشف من حقائق الكون، قد دحض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، كاليهودية، والمسيحية، وأكدت في الوقت نفسه أحقية الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل الدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:

١- فصل السياسة عن الخرافات التي كانت تسمى دينا، بعد أن فقدت الكنيسة قدرتها على الإرهاب والسيطرة والتسلط... بينما الإسلام وحده هو الذي يقدم الدين والدنيا في سياق معقولي واحد.

٢- شيوع حرية الرأي والبحث، وهو أمر خطر على الأديان الأخرى إلا الإسلام.

٣- شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٤- شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي، الذي قضى على الأسطورة والفكر الخرافي.

٥- توافر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد على تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل.

وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوربية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

وفي ظل هذه الحضارة: (لا ندري إلى أين نحن سائرون... ولكننا نسير) كما عبر الشاعر الأمريكي (بينيه).

أما (رينيه دوبو) فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه إنسانية الإنسان، ويصف الحضارة الأوربية في كلمات قليلة:

(كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة، دعمتها أجهزة منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمق الآن بسبب الحياة العصرية التي نحياها، والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها).

وعن (دوبو) ننقل كلمة رئيس بلدية (كليفند) متهكما: (إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات).

ولن نستطيع تتبع كل ما قاله المشخصين لحضارة أوربا من أبنائها: وذلك كألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، أو أرنولد توينبي في دراسته للتاريخ، أو إشبنجلر في كتابه عن أفول الغرب، أو روجيه جارودي في كتابه (حوار الحضارات) أو كونستانتان جيوروجيو في روايته (الساعة الخامسة والعشرون) وهي الساعة التي يرمز بها (جيورجيو) إلى أفول الحضارة الأوربية وانهيارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق:(حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، ويستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت، لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي... إنه لن يضيء (بنور النيون) خطوط القلب والفكر..إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيدا للآلات والمجتمع الآلي).

إن الفكر الإنساني المتحرر، المستوعب لأزمة الحضارة المادية، التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري...

هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ.

لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له، ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر.. ويتقدموا بقلب واثق مؤمن، وعقل قوي متفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الروم].

* * *

وأخيرًا..

عالم الإسلام المرتقب:

نقرأ كثيرا أن الإسلام (بناء كامل متوازن) وأنه (نظام شامل للحياة)، و (دين ودولة)...

وهذه الأقوال لشيوعها قد بدأت تفقد معناها الحق، وفعاليتها الواجبة في الفكر الإنساني... وقد أصبحت ـ في رأي الكثيرين ـ وكأنها كلمات إنشائية فارغة المحتوى..

ونحب أن نوضح أن هذه المصطلحات التي شاعت في الفكر الإسلامي الحديث تعني ـ في تصورنا ـ معنى واحدًا لا يفهمه كثير من الذين يلوكونها..

إن هذا المعنى هو (الحقيقة الإسلامية) التي نتقدم بها إلى إنسانية القرن الخامس عشر..

وهذه الحقيقة الإسلامية ليست هذا الإسلام الموجود في مخيلة كل منا، وليست الإسلام المذهبي الذي يركز فيه على مذهبية سنية أو شيعية أو صوفية.

ليست إسلامًا رجعيًّا أو تقدميًّا أو ثوريًّا...

وليست إسلامًا (يساريًّا) أو (أمريكيًّا)...

كلا... إنما الحقيقة الإسلامية بناء له طوابقه وله أساسه، ويخضع لنظام دقيق من (النسب) المتوازنة والمنسجمة والمتكاملة.. فللعقيدة دورها الأساسي، وللنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية حجمها ودورها... وللأخلاقيات حجمها ودورها...

وهكذا تتسلسل الحقائق والقيم في الإسلام خاضعة لاعتبارين:

١- مكانة وأولوية لا تتعداها.

٢- حجم لا تتجاوزه.

وهذا البناء الهندسي الدقيق نفهمه من قول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة»... وليس من حق أحد أن يعطي شعبة من هذه الشعب (مكانة) ليست لها، أو (حجمًا) لا تستحقه... كما أنه ليس من حق أحد أن يركز على شعبة من الشعب بحيث تكون ظلالها أكثف من غيرها فتبدو كثير من الشعب المجاورة لها باهتة.. أو عاجزة عن أداء دورها.

إن هذا الإسلام ـ بهذا النظام النسبي ـ هو الإسلام الذي يسقط ـ علميًّا ـ كل التيارات الاجتماعية والاقتصادية والترفيهية الوافدة علينا، والتي تسعى لتغيير صياغة حياتنا... كما أن هذا النظام هو ـ وحده ـ الحقيقة الإسلامية التي نستطيع أن نتقدم بها إلى إنسانية القرن الخامس عشر للهجرة!!

وعندما ننجح في الاحتفاظ للإسلام بنظامه وحقيقته، ونحسن التعبير عن هذه الحقيقة، ونترجمها إلى واقع مُعاش، فإن الناس ـ في كل العالم المتخبط المرتبك ـ سيدخلون في دين الله أفواجًا... لماذا؟

لأنهم سيجدون في الإسلام الإشباع الكامل لكل احتياجاتهم الروحية والعقلية والنفسية والجسدية... وسيجدون العدل الذي يهيمن على كل الجزئيات، ويحفظ لكل منها حجمها ودورها.. وسيجدون أنهم لا يستطيعون أن يلتمسوا في الإسلام شيئًا فلا يجدونه، أو أنهم مضطرون لأخذ بعضه وترك بعضه كما فعلوا مع غيره من الأديان والمذاهب.

كلا...

ففي عقيدة الإسلام ستتحقق الحاكمية لله وحده، وستسود شريعته، وستزول ـ بالتالي ـ سائر الحاكميات البشرية، وينتهي الطغيان من على الأرض...

وسيجد الناس أن هناك ميزانًا ثابتًا عادلا تعرض عليه كل الآراء وكل الأشياء فيثبت منها ما يثبت، وينفى ما ينفى...

وستحل العبادات الإسلامية عندما يطبقها الناس على حقيقتها في إطار من الوعي بدورها والشعور بمكانتها الحقة... ستحل هذه العبادات محل سائر الأحقاد الاجتماعية، وستوجد المساواة والرحمة والصدق مع النفس ومع الآخرين... وستجعل من خشية الله ومراقبته حقيقة واقعة.. وستقوم الأخلاق الإسلامية بعملية الترميم الشامل لكل الفجوات التي ربما تظهر في بعض مراحل التطبيق من جراء سيطرة الطبيعة البشرية الضعيفة...

وكذلك تقوم الأخلاق بعلاج الحالات التي توجب الالتزام بروح الشريعة،... إنها مرحلة (الإحسان) و(الإيثار)...

وفي كل ذلك ـ لو قدمنا الحقيقة الإسلامية ـ كما أرادها الله ـ ستجد الإنسانية حقيقتها الضائعة ومنهجها القويم:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

(صدق الله العظيم)

* * *